

الحلاج ... الصوفي الرَّحال والحلوي المصلوب!

د. عايض بن سعد الدوسري

اعتاد العامة، بل كثير من المثقفين والكتّاب على معرفة اسم الحلاج كرمز من رموز الصوفيّة، وعرفوه من خلال مقطوعاته الشعرية الظريفة، لو كان الغزل فيها للنساء وليس لمعانٍ فلسفيّة فاسدة، وبعض القصص هنا وهناك عنه، بل أحياناً يُصور كبطلٍ وشهيد الكلمة، أو كمسيحٍ إسلامي مصلوب!

الذي يجب أن تعرفه عن أبي مغيث الحلاج أنّه قبل أن يكون صوفيّاً، بل هو من أعمدة التصوف الغالي الحلوي، كان من زعماء الباطنية الدينيين، وكان من قادتهم الحركيين والسياسيين البارزين، بالإضافة إلى كونه من السحرة المعروفين الذين تعلموا وامتحنوا عمل السحر، وسافر لأجل دراسته في الهند!

فمن المعلوم أنّ الحسين بن منصور الحلاج (الذي قُتل سنة 309 هـ) قبل أن يكون صوفيّاً، كان شيعياً باطنياً وكان ينتسب إلى الشيعة، وكان يدعي النيابة عن مهدي الشيعة محمد بن الحسن العسكري!

وكان من الغلاة الباطنية الذين أثروا في التصوف كثيراً وأدخلوا فيه مفاهيم باطنية غالية، وكان ممن سافر للهند وتعلم علومها وفلسفتها. فقد كان الحلاج ضمن جماعة من الشيعة الغلاة الذين يدعون النيابة عن الإمام المهدي الغائب عند الشيعة، وكان ينتسب إليهم، ولا يخفي ذلك.

وكان الحلاج يدعي لنفسه الوكالة عن المهدي ويدعو الشيعة الإمامية إلى ذلك، وذهب إلى مدينة قم، ودعا بعض أهلها إليه بوصفه رسول الإمام ووكيله. وكان الحلاج يحرص على إظهار التشيع ويعلنه ويدعو إليه، ويدعي أنه الوكيل للإمام المهدي المنتظر محمد بن الحسن العسكري.

يقول شيخ الشيعة محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام الحارثي المدحجي العكبري، المعروف بابن المعلم وبالمفيد (413 هـ): "كان الحلاج يتخصص بإظهار التشيع، وإن كان ظاهر أمره التصوف".

وقد درس الحلاج على يد الداعية الإسماعيلية الحسين الأحوازي حكمة الأوائل وعلم تأويل الكتاب وعلم الإمامة، كما درس على يد ثابت بن قرة الحراي الفلسفة الأفلوطينية المحدثه.

ولعل أهم ما يميز الحلاج -بجانب كونه باطنياً- هو كونه غنوصياً، كما أكد ذلك المستشرق كارل هينرش بكر، متشعباً بتلك الفلسفة العرفانية النورانية، مثله مثل الفرق الباطنية.

وقد ذهب الحلاج في رحلة تعليمية إلى الهند لتعلم السحر وبعض علومها، وذلك بتكليف من قبل الإمام الباطني الذي كان يتبعه. يقول الإمام الذهبي: "فسافر إلى الهند وتعلم السحر، فحصل له به حال شيطاني وهرب منه الحال الإيماني".

قال ابن باكويه: سمعت أبا الحسن بن أبي توبة يقول: سمعت علي بن سير أحمد الحاسب يقول: سمعت والدي يقول: "وجهي المعتضد إلى الهند لأمر أتعرّفها له فكان معي في السفينة رجل يعرف بالحسين بن منصور [الحلاج] وكان حسن العشرة، فلما خرجنا من المركب قلت: لم جئت؟". قال: "لأتعلم السحر".

ويؤكد هذا الأمر ابن كثير حيث يقول: "وصح أنه دخل إلى الهند وتعلم بها السحر، وقال: أدعو به إلى الله، وكان أهل الهند يكتبونه: بالمغيث، أي أنه من رجال الغيث".

ويقول أحمد بن الحسين ابن الحلاج -وهو ابن الحلاج نفسه- عن والده: "خرج وغاب عنا خمس سنين، بلغ إلى خراسان وما وراء النهر ودخل إلى سجستان وكرمان، ثم رجع إلى فارس، فأخذ يتكلم على الناس ويتخذ المجلس".

وقد ذكر إمام الحرمين الجويني أن الحلاج كان بينه والجنابي، رئيس القرامطة، علاقة سرّية، وأن ذلك هو السبب في قتل الحلاج. ولعل ما ذكره الجويني يفسر لنا تعاطف الحلاج مع الدولة الفاطمية، ومناصرتة لها، وهذا ما نقله التنوخي من كلام الحلاج نفسه!

قال القاضي التنوخي: "أخبرني بعض أصحابه من الكتاب: خرج له توقيع إلى بعض دعائه، تلاه عليّ، فحفظت منه قوله فيه: وقد الآن [كذا] أوانك، للدولة الغراء، الفاطمية الزهراء، المحفوفة بأهل الأرض والسماء، وأذن للفئة الظاهرة، مع قوة ضعفها في الخروج إلى خراسان، ليكشف الحق قناعه، ويسط العدل باعه".

وقد كان الحلاج يُعرف في بغداد وغيرها بأنه قرمطيّ، ومناصر للقرامطة وله بهم علاقة وطيدة، غير ما ثبت عنه من التشيع، فينقل الذهبي أن الحلاج أدخل بغداد مشهوراً على جمل، وعلق مصلوباً ونودي: هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والحلاج لما دخل بغداد كانوا ينادون عليه هذا داعي القرامطة، وكان يظهر للشيعة أنه منهم".

شخصية الحلاج غامضة ومتناقضة، فقد كان محتالاً مشعوذاً، يتعاطى مذاهب الصوفية ويتحلى بألفاظهم، ويدعي عند أصحابه الإلهوية، ويقول بالحلول، ويظهر مذاهب الشيعة

للملوك، ومذاهب الصوفية للعامة، وكان في أول أمره يدعو إلى الرضا من آل محمد، أي نزع الحكم والملك من أهل السنة ونقلها للشيعة!

وكانت شخصية الحلاج شخصيةً حركيةً منظمة، يستهدف التجمعات والمذاهب والفرق والجماعات بما تحب أن تسمعه، فهو مع الصوفية صوفي، ومع الشيعة الإمامية شيعي إمامي، ومع المعتزلة معتزلي، مما يدل على أنه حركي خطير يتبع تنظيمات باطنية عُرف عنها وأشتهر مثل تلك التنظيمات الحركية السرية.

يقول **الذهبي**: "وكان ظاهره أنه ناسك، فإذا علم أن أهل بلد يرون الاعتزال صار معتزلياً، أو يرون التشيع تشيع، أو يرون التسنن تسنن، وكان يعرف الشعبذة والكيمياء والطب ويتنقل في البلدان. و[كان] يظهر التشيع للملوك ومذاهب الصوفية للعامة".

وهذه الشخصية المتلونة هي طبيعة الشخصية الباطنية، فإن من أساليبهم أن يتقمصوا مذاهب الناس ويندسوا فيها، ويدخلون بعد ذلك فيها ما يفسدها، تمهيداً للدعوة الباطنية، وتأسيساً لأفكارهم الهدامة.

ومن ذلك ما فعله **الحلاج** حينما بدأ محاولته في دعوة الإمامية الشيعة لسهولة رواج فكره عليهم، فلما لم ينجح في ادعاء النيابة عن المهدي أندس في الصوفية ودخل في أمرهم مع كونه شيعياً باطنياً!

يقول **الخطيب البغدادي**: "أخبرنا علي بن أبي علي عن أبي الحسن أحمد بن يوسف الأزرق أن الحسين بن منصور الحلاج لما قدم بغداد يدعو، استغوى كثيراً من الناس والرؤساء وكان طمعه في الرفضة أقوى لدخوله من طريقهم".

ويقول أيضاً **الخطيب البغدادي**: "الحسين بن منصور الحلاج يكنى أبا مغيث، وقيل: أبا عبد الله، وكان جده مجوسي اسمه محمي من أهل بيضاء فارس، نشأ الحسين بواسط، وقيل:

بشستر، وقدم بغداد فخالط الصوفية وصحب من مشيختهم: الجنيد بن محمد، وأبا الحسين النوري، وعمرو المكي".

وبهذه المخالطة أدخل الحلاج على الصوفية الكثير من الأفكار الباطنية والفلسفية، ولعل من أهم ما أدخله: فكرة الحلول، وفكرة النور المحمدي الأزلي، وهو كذلك الذي فتح باب وحدة الوجود لمن بعده من غلاة الصوفية كابن عربي فأشغلهم بها، وفتح باب شر عظيم.

وقد قال كثير من كبار العلماء إنه لم يسترب أهل العلم في كفره، فقد حكم علماء عصره بكفره وردته بسبب عقائده الباطنية الفاسدة، وبسبب انتمائه للحركة القرمطية الباطنية، ففي (سنة 309هـ) قتل الحلاج بفتوى من العلماء.

قال ابن كثير: "وقد اتفق علماء بغداد على كفر الحلاج وزندقته وأجمعوا على قتله وصلبه وكان علماء بغداد إذ ذاك هم الدنيا".

والحلاج الباطني المندس بين الصوفية الأوائل هو ولأول مرة في تاريخ التصوف يجعل النور الإلهي الأزلي ينتقل من أول صادرٍ عن الله وهو نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا النور هو نور قديم كان قبل أن تكون الأكوان، ومنه صدرت الموجودات، ومن نوره ظهرت أنوار النبوات.

والحلاج -وهو أول باطني منتسب للتصوف- هو أول من أدخل عقيدة الباطنية في الذات الإلهية والأسماء والصفات إلى التصوف، وسيكون لها دور كبير في صناعة نظرية (الإنسان الكامل) و(الحقيقة المحمدية)، بل الحلاج هو أول من تكلم عن (الإنسان الكامل).

يقول الحلاج: "أنوار النبوة من نوره برزت.. وليس في الأنوار نور أنور وأقدم في القدم، سوى نور صاحب الحرم. همته سبقت الهمم ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم، لأنه

كان قبل الأمم والشيم.. وهو سيد أهل البرية، الذي اسمه أحمد.. لم يزل كان [كذا] مشهوراً قبل الحوادث والكوائن والأكوان".

ففي هذا النص المهم من كلام الحلاج نفسه - وهو أول نص صوفي في هذه المسألة - يبين فيه الحلاج الباطني بجلاء حقيقة العقيدة التي ستدخل إلى التصوف وهي (النور المحمدي)، وطبيعته ووظيفته، وبذلك يكون أول صوفي يفتق الكلام في هذه النظرية الفلسفية، ومنه سوف تلج هذه الفلسفة إلى التصوف!

إذا علمنا أن الحلاج الباطني هو أول صوفي فتق الكلام في مسألة (النور المحمدي) وتحدث عن طبيعته ووظيفته؛ فإن ابن عربي هو الفيلسوف الصوفي الذي أكمل وأتم هذه المسألة، وأشبعها حديثاً واستطراداً، حتى اكتملت ملاحظتها، ونضجت على يده.

وبقايا عقيدة الحلاج في الله وصفاته، وفي الحلول، والقضاء والقدر، قد أشار إلى شيء منها بنفسه في ديوانه الشعري، الذي نُشر وطُبع أكثر من مرة. ولعلنا نذكر بعض تلك المقطوعات الشعرية التي تضمنت بعض ما يعتقد هذا الباطني المتصوف.

يقول الحلاج مبيناً عقيدته في القضاء والقدر:

ما حيلة العبد والأقدار جارية *** عليه في كل حال أيها الرائي؟

ألقاه في اليوم مكتوفاً وقال له *** إِيَّاكَ إِيَّاكَ أن تبتل بالماء

ويقول مفصلاً عن عقيدته في الحلول:

سبحان من أظهر ناسوته *** سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثمّ بدا في خلقه ظاهراً *** في صورة الأكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه *** كلحظة الحاجب بالحاجب

ويقول شارحاً عقيدة الحلول:

أنا أنت بلا شك *** فسبحانك سبحاني
وتوحيدي توحيدي *** وعصيانك عصياني
وإسخطاك إسخطاي *** وغفرانك غفراني
ولمّ أجدُ يا رب *** إذا قيل: هو الزّاني؟

ويقول في مقطوعات شعرية تشرح اعتقاده في فكرة حلول الله -تعالى الله-، وغلف
ظاهرها بالحب والعشق، ولو كانت أبيات غزلٍ بالفعل لكان في بعضها جمال ولطافة،
لكنّ الحلاج لا يريد بها ذلك بتاتاً، وإنما يُريد بها معانٍ في غاية البطلان والفساد
الاعتقادي. ومن ذلك قوله:

كتبْتُ ولم أكتبُ إليك و إنّما *** كتبْتُ على رُوحِي بغيرِ كتابِ
و ذلك أنّ الرُوح لا فرق بينها *** و بين مُحبِّيّها بفصلِ خطابِ
أريدُك لا أريدُك للثواب *** و لكنّي أريدُك للعقاب

كَفَى حَزْناً أَنِّي أَنَادِيكَ دَائِماً *** كَأَنِّي بَعِيدٌ أَوْ كَأَنَّكَ غَائِبٌ

ويقول:

لِيكَ لِيكَ يَا سَرِي وَبُخَوَائِي *** لِيكَ لِيكَ يَا قَصْدِي وَمَعْنَائِي

أَدْعُوكَ بَلْ أَنْتَ تَدْعُونِي إِلَيْكَ فَهَلْ *** نَادَيْتُ إِيَّاكَ أَمْ نَادَيْتَ إِيَّائِي

يَا عَيْنَ عَيْنٍ وَجُودِي مَا مَدَى هَمِّي *** يَا مَنْطِقِي وَعِبَارَاتِي وَإِيمَائِي

يَا كُلَّ كُلِّي وَيَا سَمْعِي وَيَا بَصْرِي *** يَا جَمَلِي وَتَبَاعِضِي وَأَجْزَائِي

يَا كُلَّ كُلِّي وَكُلَّ الْكُلِّ مَلْتَبَسٍ *** وَكُلَّ كَلِّكَ مَلْبُوسٍ بِمَعْنَائِي

يَا مَنْ بِهِ عَلِقْتَ رُوحِي، فَقَدْ تَلَفْتَ *** وَجَدّاً فَصَرْتَ رَهِيناً تَحْتَ أَهْوَائِي

أَدْنُو فَيُعِدُّنِي خَوْفِي فَيَقْلِقُنِي *** شَوْقٌ تَمَكَّنَ فِي مَكْنُونِ أَحْشَائِي

قَالُوا: تَدَاوَى بِهِ مِنْهُ، فَقُلْتَ لَهُمْ: *** يَا قَوْمَ هَلْ يَتَدَاوَى الدَّاءُ بِالدَّاءِ

ويقول:

إِنِّي لِأَرْمَقُهُ وَالْقَلْبَ يَعْرِفُهُ *** فَمَا يَتَرَجَّمُ عَنْهُ غَيْرَ إِيْمَائِي

يَا وَيْحَ رُوحِي مِنْ رُوحِي، فَوَا أَسْفِي *** عَلَيَّ مَنِي فَاإِنِّي أَصِلُ بِلُؤَائِي

إِنْ كُنْتَ بِالْغَيْبِ عَنْ عَيْنِي مُحْتَجِباً *** فَالْقَلْبَ يَرْعَاكَ فِي الْإِبْعَادِ وَالنَّائِي

ويقول:

نسمات الريح قولي للرّشا *** لم يزدني الورد إلا عطشا

لي حبيبٌ حبهُ وسط الحشا *** إن يشأ يمشي على خدي مشى

روحه روعي وروحي روحه *** إن يشأ شئتُ وإن شئتُ يشا

وكل تلك الأبيات الغزليّة لا يقصد بها إلا الله -تعالى الله عن ذلك- وحلولة سبحانه وتعالى في الحلاج وفي الأشياء.

ويقول معترفاً بعقيدته:

كفرت بدين الله والكفر واجب *** عليّ وعند المسلمين قبيح

قال ابن تيمية: "وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا خِلَافَ بَيْنِ الْأُمَّةِ أَنَّ مَنْ قَالَ بِحُلُولِ اللَّهِ فِي الْبَشَرِ وَاتِّحَادِهِ بِهِ وَأَنَّ الْبَشَرَ يَكُونُ إِلَهًا وَهَذَا مِنَ الْإِلَهَةِ: فَهُوَ كَافِرٌ مُبَاحُ الدَّمِّ، وَعَلَى هَذَا قُتِلَ الْحَلَّاجُ. وَمَا نَعَلِمُ أَحَدًا مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ذَكَرَ الْحَلَّاجَ بِخَيْرٍ، لَا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَلَا مِنَ الْمَشَائِخِ، وَلَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقِفُ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ أَمْرَهُ".

وقال ابن كثير: "أحضرت زوجة ابنه سليمان فذكرت عنه [الحلاج] فضائح كثيرة. من ذلك: أنه أراد أن يغشاها وهي نائمة فانتبهت فقال: قومي إلى الصلاة، وإنما كان يريد أن يطأها. وأمر ابنتها بالسجود له فقالت: أو يسجد بشر لبشر؟ فقال: نعم إله في السماء وإله في الأرض".

وقال أيضاً ابن كثير: "ولما كان آخر مجلس من مجالسه أحضر القاضي أبو عمر محمد بن يوسف، وجيء بالحلاج وقد أحضر له كتاب من دور بعض أصحابه وفيه: من أراد الحج ولم يتيسر له، فليبن في داره بيتاً لا يناله شيء من النجاسة، ولا يمكن أحداً من دخوله، فإذا كان في أيام الحج فليصم ثلاثة أيام وليطف به كما يطف بالكعبة، ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة".

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا بكر الشاشي يقول: قال أبو الحديد المصري: لما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها الحلاج قام قائماً فتغطى بكسائه ومد يده نحو القبلة، فتكلم، فكان مما حفظت منه قوله: "إني أوعزت إلى شاهدك لأني في ذاتك الهوى كيف أنت إذا مثلت بذاتي عند حلول لذاتي، ودعوت إلى ذاتي بذاتي، وأبدت حقائق علمي ومعجزاتي، صاعداً في معارجي إلى عروش أزياتي عند التولي عن برياتي".

وقال الخطيب: "حدثنا عبد الله بن أحمد بن عثمان الصيرفي قال: قال لنا أبو عمر بن حيوية: لما أخرج الحسين بن منصور الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس، ولم أزل أزاحم حتى رأته فدنوت منه فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا الأمر، فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يوماً. ثم قتل فما عاد!".

قال ابن كثير: "ثم قطعت يداه ورجلاه وحز رأسه وأحرقت جثته وألقى رمادها في دجلة، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر، ثم حمل إلى خراسان وطيف به في تلك النواحي، وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه إليهم بعد ثلاثين يوماً".

وقال إمام الحرمين الشافعي: "دخل الحلاج العراق، فحكم أصحابه عليه بالهلكة لعدم الخداع أهل العراق بالباطل".

ما سبق هو نبذة مُختصرة عن الحلاج الباطني المتصوف، الذي يُعتبر من أخطر الحركيين الباطنيين المتصوفة الذين أرادوا تفكيك وزعزعة المجتمعات الإسلامية، وخصوصاً السنية، من خلال اختراق الطرق الصوفية، خدمة لمنظمتهم الباطنية، وبث أفكارهم وعقائدهم وفلسفاتهم الفاسدة من خلالها.